جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم التاريخ

مقياس تاريخ المشرق الإسلامي ق2-8هـ/8-14م

د. بلال ساحلي

البريد الالكتروني: b.sahli@univ-dbkm.dz

المحاضرة السابعة السداسي الثاني:

1- تعريف المماليك وأصولهم:

المماليك جمع مملوك، وهو العبد الذي يباع ويشترى في أسواق النخاسة، وقد اقتصرت هذه الكلمة في القرون الإسلامية المتأخرة على الرقيق أصحاب البشرة البيضاء، وكان مصدرهم أسرى الحروب، أو يجلبهم التجار غير العرب من شبه جزيرة القرم، وبلاد القوقاز، وآسيا الصغرى، وبلاد ما وراء النهر، فكان فيهم الأتراك والشراكسة والأوربيين والأكراد وغيرهم .

ويعتبر العنصر التركي المكون الأساسي للمماليك لما لهم من خصائص ومزايا عسكرية، منذ أن فتح لهم الباب الخليفة العباسي المعتصم الذي اعتمد عليهم بشكل كبير في الجيش وبنى لهم مدينة سر من رأى، ثم توسعت دائرة الاعتماد عليهم، فكانوا هم الأاس في إمارات السلاجقة في الشام، وفي مصر اعتمدت عليهم الدولة الطولونية التي يعتبر مؤسسها أحمد بن طولون من المماليك، وكذلك الدولة الإخشيدية حيث بلغت أعدادهم بالآلاف، ثم تزايدت أعدادهم في الدولة الفاطمية، وأصبح منهم الولاة وقادة الجيش، ووضعوا لأبنائهم نظاماً تربويا خاصاً .

ولأن الدولة الأيوبية دولة كردية الأصل قامت على أنقاض الدولة الفاطمية والسلاجقة والزنكيين فإنهم اعتمدوا على المماليك وقربوهم إلى الوظائف الحساسة وكان لهم الإقطاعات مقابل الخدمة الحربية وقت الحروب، فالجيش الذي قاده أسد الدين شيركوة عم صلاح الدين لفتح مصر كان أغلبه من المماليك، وأصبح لكل سلطان أيوبي

المماليك الخاصة به والتي تحمل اسمه مثل المماليك الصلاحية، والكاملية، والعادلية، وقد تورط المماليك في الصراعات التي كانت بين الأمراء الأيوبيين حيث اجتهدت كل فئة منهم في الانتصار للسلطان الذي يضمن لهم إقطاعاتهم ومناصبهم القيادية .

حكم المماليك مصر وبلاد الشام وانقسموا إلى قسمين:

1- **المماليك البحرية**: وهم الذين جلبهم الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان أكثر السلاطين الأيوبيين اعتماداً على المماليك، فكان أكثر أمراء عسكره منهم، وبنى لهم قلعة في جزيرة الروضة في القاهرة، ثم اختار منهم فرقة للأسطول البحري، سميت بالفرقة البحرية، وهو أصل تسميتهم، في المقابل يرى آخرون، أن سموا بالبحرية لأنهم كانوا يقيمون في جزيرة الروضة التي يحيط بها نهر النيل الذي يسمى بالبحر، وقال آخرون بل لأنهم جاؤوا من وراء البحار .

2- **المماليك البرجية**: وهم المماليك الذين لم يجلبهم الأيوبيون وأغلبهم من الشركس جلبهم السلطان قلاوون، ثم قام ابنه الأشرف بإسكان المماليك السلطانية منهم في أبراج القلعة، وبلغ عددهم آنذاك 3700 مملوك، وقد حكم هؤلاء من 784-923هـ/1382-1517م .

2- نشأة دولة المماليك:

كان السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب يتولى السلطنة على مصر والشام، وقد عاصر الحملة الصليبية السابعة التي يقودها الملك الفرنسي لويس التاسع، حيث سعت هذه الحملة لإسقاط مصر لظنهم أنها مفتاح السيادة على بيت المقدس، وفي ظل تلك الصدامات العسكرية توفي السلطان الأيوبي الصالح سنة 647هـ/1449م وتولت زوجته شجر الدر إدارة شؤون الحرب وأخفت خبر وفاته وهذا من حنكتها حتى لا يضطرب المجاهدون، وفي نفس الوقت أرسلت لابن زوجها تورانشاه الذي كان حينها في حصن "كيفا"، فدخل مصر سنة 648هـ/1450م وساعده المماليك على التصدي للصليبيين وأسر قائدهم لويس التاسع، وبذلك فشلت الحملة السابعة .

لكن المماليك سرعان ما انقلبوا على تورنشاه وكان سبب الشرخ بينه وبين المماليك أنه لما قدم من حصن: "كيفا" أحضر معه أصحابه ووزع عليهم الوظائف، في المقابل حرم المماليك منها رغم مساهمتهم الكبيرة في التصدي للصليبيين، كما أنه استشعر أنهم يزاحمونه على السلطة، خاصة أن والده كان يعتمد عليهم بشكل كبير ومنحهم المناصب السيادية، فأراد تورنشاه أن يتخلص منهم، كما أنه في نفس الوقت أساء لزوجة أبيه شجر الدر ولم يحفظ لها دورها في انتقال السلطنة إليه بعد وفاة والده بل اتهمها بأنها أخفت عليه ثروة أبيه، وهددها، وهذا ما دفع

المماليك وشجر الدر إلى التآمر عليه وقتله سنة 648هـ/1450م، وبمقتله انتهى حكم الأيوبيين واختار المماليك شجر الدر لتكون أول سلطانة عليهم[1] .

ويبدوا أن تولي شجر الدر السلطنة كان وليد الظروف الاستثنائية التي عاشتها مصر، كما أنها كانت تحضى بدعم المماليك، في المقابل فإنها لم تلقى التأييد من عامة الشعب ورجال الدين والخلافة العباسية، فهي أول ملكة مسلمة دامت سلطتها ثلاثة أشهر، ورغم أنها حاولت إرساء حكمها إلا أنها وجدت معارضة من عدة أطراف فالمصريين أنفوا من أن تحكمهم امرأة، كما أن تيار الفقهاء شكلوا حزباً معارضاً قاده الشيخ عز الدين عبد السلام، الذين رأوا في حكم المرأة فتنة للمسلمين، وفي ظل هذه الظروف تحرك حفيد صلاح الدين الملك الناصر يوسف صاحب حلب الذي حاول استرداد السلطنة فسيطر على دمشق ثم أراد الزحف على مصر، فخاف المماليك على دولتهم الناشئة، فكتبوا إلى الخليفة العباسي المستعصم(640-656هـ/1243-1259م) يطلبون منه تزكية سلطنة شجر الدر، لكنه صدمهم برده وكتب لهم: (إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير لكم رجلاً).

ولأن المماليك لم يكونوا مستعدين للتنازل عن الملك فإنهم اهتدوا إلى ضرورة أن تتزوج شجر الدر أحد القادة الأتابكة، واتفقوا على شخصية عز الدين أيبك أحد أمراء الممالك البحرية، فتزوجها وتنازلت له على العرش، سنة 647هـ/1250م، وتلقب: "بالملك المعز"، وقد وجد نفسه أمام عدة تحديات تتمثل في تهديدات الصليبيين، ومساعي بقايا الأيوبيين في استرداد دولتهم، وأطماع زملائه المماليك وثورات الأعراب في الداخل، وقد نجح إلى حد ما في احتواء هذه المخاطر، إلا أن سلطانه انتهى على يد زوجته شجر الدر التي ضيق الخناق عليها وأبعدها، ولم يأخذ بالحسبان أنها مازالت تمتلك الكلمة الأولى عند المماليك البحرية، فحاول كل منهما قتل الآخر إلى أن نجحت شجر الدر في اغتياله سنة 655هـ/1257م، ثم حاولت عرض السلطة على أحد الأمراء حتى تحكم من خلفه، ولكنهم رفضوا جميعا وانقسم المماليك بين مؤيد لها ومعارض يريد قتلها، فمالت الكفة للطرف الثاني وتم قتلها .

وفي ظل هذا الانقسام قام المماليك بتعيين ابن عز الدين أيبك ولقبوه "بالملك المنصور علي" 655هـ/1257م، وهو لم يتجاوز خمسة عشر سنة، فحاول الطرف الثاني من المماليك إسقاطه، إلا أن نائب السلطنة الأمير سيف الدين قطز حال دون مساعيهم، وذلك قبل أن ينقلب عليه لاحقاً لما تقتضيه الحرب ضد التتار .

[1] محمد عبد الله عودة وآخرون، مختصر التاريخ الإسلامي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1989م، ص122.